

القيم الحضارية لرعاية المسنين من منظور قرآني

طالب محمد عبد القادر الصرايره*

ملخص

يتناول هذا البحث القيم الحضارية لرعاية المسنين في القرآن الكريم، وكيفية التعامل معهم، وحسن الاهتمام بهم، ورعايتهم، والأخلاق الواجبة في معاملتهم، وعدم تركهم وتهميشهم، مما يضع علاجاً كاملاً لمجمل القضايا التي يعاني منها المسنون في العصر الحديث، وهذا يكشف عن القيم الحضارية الأخلاقية الرفيعة التي انفردت بها الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع والأنظمة المعاصرة. الكلمات الدالة: القيم الحضارية، المسنين.

The Civilizational Values of Giving Care to Elderly people from the Quranic Perspective

Taleb Mohammad Al-Saraireh

Abstract

This paper deals with the civilizational values for giving care to the elderly people, as shown in Holy Quran, like how to deal with them, taking care of them and not ignoring them. The problems that they encounter have been solved in the Holy Quran. This has revealed the bright and civilized face of Islamic Shari'ah and makes it distinguished from other faiths.

Keywords: Civilizational Values, Elderly.

* قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة مؤنة.

تاريخ قبول البحث: 2009/6/4.

تاريخ تقديم البحث: 2009/3/24.

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤنة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2010.

إن الحمد لله نحمده ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

تُعَدُّ القيم الحضارية في القرآن الكريم مفتاح الولوج إلى المستقبل، ووسيلة أداء المسلمين لرسالتهم في عالم يتعرض لتغيرات متسارعة قوية بسبب العولمة المعاصرة، لها تأثيرها على المنظومة القيمية في حياة المسلمين وغيرهم؛ لأن مظاهر الخلل والاضطراب في عالم اليوم يأتي في مقدمة أسبابه فقدان العالم لنسق قيمي يوطر سلوك البشر ويوجههم، ويحفظ للمجتمعات تماسكها واتزانها، وضبط حركتها ومسارها؛ لأن القيم تحتل المكانة الأولى في المجتمع الإنساني، كما أنها تحدد للمجتمع مثله العليا، وأهدافه السامية حتى يتحقق مجتمع العدل والكفاية، والسلام والأمن، وهذا يتطلب معرفة القيم وأهميتها عقلياً وفكرياً وممارسة وسلوكاً.

والقيم تمثل حاجة إنسانية يتعامل معها العلماء باختلاف تخصصاتهم؛ لأنها تمثل الإطار الحضاري الذي يضبط عملية التفاعل بين الفرد والمجتمع، وتمثل الضوابط والمعايير التي تحكم العلاقات وتوطرها بين العبد وربّه، أو العبد ونفسه، أو العبد ومجتمعه ومحيطه؛ لذلك أصبحت القيم هي الأساس المحرك للعملية التربوية في كل مجتمع، وحرص الأمة على قيمها أكثر من حاجتها إلى التكنولوجيا التي تفقد قيمتها عندما تكون مفرغة من القيم والأخلاق أو بعيدة عنها؛ لأن عدم التزام المجتمع الإنساني بأنساق قيمية تحدد مساراتها وتضبطها وتتفاعل معها، هو الذي يؤدي إلى مظاهر الاضطراب وفقدان الأمن الاجتماعي والنفسى للمجتمع الإنساني.

إن كلمة الله تعالى قضت أن نكون الشيخوخة دورة حياتية ملازمة للإنسان، قال تعالى: (الله الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) [54: الروم].

وفي ظل ابتعاد الأفراد والمجتمعات عن التوجيه القرآني نجد الإنسانية تغيرت مفاهيمها واضطربت تصوراتها حول معالجة مشكلات المسنين والكبار والشيخوخة، فالمجتمعات الغربية ومن نهج نهجهم، يرون أن هذه الفئة تشكل عبئاً ثقیلاً عليهم، وأنهم لا يؤدون أي دور في التنمية، وليسوا مؤهلين للرعاية والتكريم، وبالتالي أهملوا وشرّدوا.

وجاءت الدراسة لتسلط الضوء على القيم الحضارية القرآنية التي حفظت حقوق هذه الفئة، وأوجبت حسن معاملتهم، وأن لهم المكانة العالية في المجتمع؛ لأن الأمة التي تهين كبارها ومسنّيها فهي على إهانة صغارها أشد، مما أوجد الفوضى في العلاقات الأسرية، ودفع الدول إلى إنشاء دور للعجزة والمسنين

الذين تطردهم عائلاتهم، أو الذين لا يجدون من يعولهم، في ظل فساد الأسر والبيوت، وتكرر الأبناء والحفدة لجميل الآباء والأجداد.

وقد أفدت من الدراسات السابقة التي عنت بهذا الموضوع، والتي تنوعت في ميادينها فكان منها الاجتماعي والنفسي والشرعي، ومن تلك الدراسات رعاية المسنين في الإسلام لعبدالله بن ناصر السحان، ومشكلات التقدم في السن لكمال آغا، وحقوق الشيوخ والمسنين في ضوء الشريعة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي، وحقوق الأطفال والمسنين للدكتور وهبه الزحيلي وغيرها.

وما حاولت إضافته في هذه الدراسة إبراز ما جاء في القرآن الكريم من قيم حضارية تتعلق برعاية المسنين وتكريمهم وتقديرهم من خلال دراسة الآيات الواردة في هذا الموضوع ودراساتها.

واشتملت الدراسة على تمهيد، وأربعة مباحث:

المبحث الأول: أهمية القيم الحضارية في القرآن الكريم

المبحث الثاني: رعاية الوالدين في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الآداب القرآنية في التعامل مع المسنين.

المبحث الرابع: الأحكام الفقهية الخاصة بالمسنين في القرآن الكريم.

التمهيد:

أ. القيم في اللغة والاصطلاح:

القيم لغة: مصدر كالصغر والكبر، بمعنى الاستقامة⁽¹⁾.

القيم اصطلاحاً: ذكر للقيمة معان متعددة منها:

قال الراغب الأصفهاني في قوله تعالى: (دِيناً قِيَمًا) [161: الأنعام]، أي ثابتاً مقوماً لأُمور معاشهم ومعادهم⁽²⁾، وفي قوله تعالى: (وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) [5: البينة]، القيمة هنا: اسم للأمة القائمة بالقسط⁽³⁾، أو الشديدة الاستقامة⁽⁴⁾.

وذكر الإمام الرازي في الآية السابقة بأن القيمة: الأحكام القيمة، أما القيمة ففيها قولان: الأول: مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل، والثاني: أن تكون القيمة بمعنى القائمة، أي: المستقلة بالحجة والدلالة، والدين القيم: الدين المستقل بنفسه⁽⁵⁾.

إن مفهوم القيم في الاصطلاح لا تختلف كثيراً عن المفهوم اللغوي الذي يربط القيم بالاستقامة والاعتدال والاستواء، ويرى بعض الباحثين أن العرب لم يستعملوا هذه الكلمة مفردة أو جمعاً بالمفهوم المعاصر؛ لأنها استعملت عند المسلمين بمعنى الخلق أو الأخلاق، حسنة أم سيئة⁽⁶⁾، فلفظ القيمة تدل على ما يقوم به الشيء ويتكوّن منه ويستدلّ به على هيئته، ويفصل البعض بين القيم والأخلاق باعتبار ارتباط الأخلاق بالصفات الطبيعية في الإنسان فطرة وسجية، والصفات المكتسبة التي تُعدّ عادة في سلوك الإنسان، غير أننا لا نستطيع فصل القيم في الإسلام عن مصادرها العقدية والإيمانية والخلقية فطرية كانت أم مكتسبة.

وعرّفت القيم بأنها: "معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية وعامة، تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدّمها الجماعة، ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية، ويقيم منها موازين يسوّغ بها أفعاله، ويتخذها هادياً ومرشداً، وتتشرب هذه القيم في حياة الأفراد، فتحدد لكل منهم خلائه وأعداءه وأصحابه"⁽⁷⁾.

وعرفها د. علي أبو العينين: "أن القيمة تدل على مفهوم يدل على مجموعة من المعايير والأحكام، تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته، يراها جديرة بتوظيف إمكاناته، وتتجسد من خلال الاهتمامات أو الاتجاهات أو السلوك العملي أو اللفظي بطريقة مباشرة وغير مباشرة"⁽⁸⁾.

ويمكن تعريف القيم الإسلامية بأنها: مجموعة أوامر إلهية تمثل أصولاً لضوابط الفرد في علاقاته المختلفة، وتمكّن المجتمع الذي يلتزم أفرادها بها من التقدم والتطور بسلام وأمان في الدنيا مع الفوز في الآخرة.

ب. الحضارة في اللغة والاصطلاح:

الحضارة لغة: مأخوذة من الحَضَرَ بفتح الحاء ضد البداوة، والحاضرة: خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف⁽⁹⁾، والحضارة: الإقامة في الحضر، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي⁽¹⁰⁾.

الحضارة اصطلاحاً:

يعرفها أبو الأعلى المودودي بقوله: "مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى - لكل هذه الشؤون والشعب المختلفة لحياة الإنسان"⁽¹¹⁾.

ويضيف مالك بن نبي بأن الحضارة: "مجموعة من العلاقات بين المجال الحيوي حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها، أي هي جملة الشروط المعنوية والمادية التي تسمح لمجتمع ما أن يقدم لكل فرد من أعضائه الضمانات الاجتماعية لتقدمه"⁽¹²⁾.

وخلصت الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري بأن الحضارة: حسيمة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الله الكونية والتشريعية، وفق الرؤية الكونية التوحيدية من أجل الترقى المعرفي والروحي والسلوكي والعمرائي⁽¹³⁾، فرعاية المسنين في الإسلام حضارة، لما فيها من تقدم المجتمع مادياً ومعنوياً في مختلف مجالات الحياة.

وبعد أن عرفنا القيم والحضارة، يمكن القول بأن القيم الحضارية: مجموعة المبادئ، والأخلاق، والأحكام، والتعاليم، والنظم المستمدة من الإسلام، يتوأسى بها المجتمع، وتتوارثها الأجيال، وتجاهد في سبيلها؛ لإسعاد الإنسانية، وإبعادها عن المخاوف والآلام.

جـ. المسنون في اللغة والاصطلاح:

المسنن: لغة: مصدر أسن، نقول: أسن الرجل أي كبرت سنه⁽¹⁴⁾، وهذا أسن من هذا أي أكبر سناً منه، وفلان سن فلاناً إذا كان مثله في السن⁽¹⁵⁾.

ولم يتفق الباحثون حول مرحلة المسنين، وذلك لكونها ليست من الظواهر الثابتة التي تحدث في المراحل الأخيرة من حياة الفرد، ولكنها حياة سيالة تتأثر بفسولوجية الفرد ونفسيته، والبيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يعيش فيها.

فبعض الباحثين الاجتماعيين اكتفوا بالعمر التاريخي معياراً لتعريف المسن، وقالوا: "المسن هو من تجاوز عمره الستين"⁽¹⁶⁾، وهذا تعريف قاصر لعدم تناوله بقية المعايير الأخرى البيولوجية، والاجتماعية، والنفسية، والوظيفية.

ومنهم من اكتفى بالعمر الوظيفي، مثل إسماعيل عزت في قوله: "حالة يصبح فيها الاتحاد في القدرات الوظيفية البدنية والعقلية واضحاً، يمكن قياسه، وله آثاره على العمليات التوافقية"⁽¹⁷⁾.

ومنهم من اعتمد أكثر من مقياس لتعريف المسن، فاستعمل جميع المقاييس الزمنية، والبيولوجية، والاجتماعية، والنفسية، من هؤلاء كمال آغا الذي عرفه بقوله: "حقيقة بيولوجية تميز التطور الختامي في دورة حياة البشر"⁽¹⁸⁾.

وانطلاقاً من التعاريف السابقة يمكن القول: إن بداية مرحلة المسنين لا تخضع لمعيار محدد دون النظر إلى باقي المعايير الأخرى، بل لا بد من اعتبارها مجتمعة.

المسن في الاصطلاح: "كل فرد أصبح عاجزاً عن رعاية نفسه وخدمتها، إثر تقدمه في العمر، وليس بسبب إعاقة أو شبيهها"⁽¹⁹⁾.

تعريف الشيخ:

هو الذي استبان في السن وظهر عليه الشيب⁽²⁰⁾، وذكر هذا اللفظ في مواقع متعددة في القرآن الكريم، وفي كل مرة ارتبط ذكر الشيخ في معنى خاص به، في قوله تعالى: (قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخَ كَبِيرٍ) [23: القصص]، وقوله: (قَالَتْ يَوِئَسًا لِأُكِّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا) [72: هود]، وقوله: (ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا) [67: غافر].

ولذلك تكاد تجمع الأبحاث في علم الحياة على أن الشيخوخة عبارة عن: "تمط شائع من الاضمحلال الجسمي في البناء والوظيفة، يحدث بتقدم السن لدى كل كائن حي بعد اكتمال النضج، تعترى كل الأجهزة الفسيولوجية والعضوية والحركية والدورية والهضمية والبولية والتناسلية والغذية والعصبية والفكرية"⁽²¹⁾.

تعريف الهرم:

أقصى الكبر⁽²²⁾، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم بمعنى الكبر والشيب⁽²³⁾، في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) [4: مريم]، وقوله (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) [54: الروم].

وقد ورد هذا اللفظ في الحديث الشريف بمعنى الكبر والشيب، فعن أنس رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - يهرم ابن آدم وتشيب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر " [مسلم، صحيح مسلم، باب كراهية الحرص على الدنيا، حديث رقم (1047)].

تعريف المعمر:

العين والميم والراء أصل يدل على بقاء وامتداد الزمان، وهو بمعنى العمر، والمعمر من طال عمره⁽²⁴⁾.

والمعمر: بمعنى الهرم، وقيدته فتادة من بلغ الستين من عمره⁽²⁵⁾، في قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعْمَرٍ وَلَا يُفَقِّصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [11: فاطر].

تعريف أرذل العمر:

أرذل في اللغة من مادة: رذل، والرذل، والأرذل الدون الخسيس أو الرديء⁽²⁶⁾.

ووردت عبارة "أرذل العمر" في قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) [70: النحل]، وقوله: (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) [5: الحج]، وأرذل العمر: ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم، وروي عن علي -كرم الله وجهه- أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة⁽²⁷⁾.

وفي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو: "أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات" [البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، حديث رقم (4430)]،

وفسر ابن عباس أرذل العمر: أي أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له⁽²⁸⁾.

وساوى السيوطي بين معنيين الهرم وأرذل العمر في قوله: "والهرم هو الرد إلى أرذل العمر لما فيه من اختلال العقل والحواس، والضبط والفهم، وتشويه بعض المنظر، والعجز عن كثير من الطاعات، والتساهل في بعضها"⁽²⁹⁾.

ويلاحظ من خلال ما تقدم أن لفظ مسنّ أعم من بقية الألفاظ الأخرى؛ لأنه يعني مطلق الكبر، وهما ينترجان في الكبر، ولفظ الشيخ أخص، لأنه لا يعني بالضرورة أن يكون جميع المسنين شيوخاً، والأخص منهما الهرم الذي يعني أقصى الكبر.

المبحث الأول: أهمية القيم الحضارية في القرآن الكريم

تعدّ القيم الحضارية في الإسلام اللبنة الأولى في البناء الديني والروحي والسلوكي للإنسان؛ لأن القرآن الكريم يقرر أن فضل الإنسان على بقية المخلوقات مرهون برعاية القيم الحضارية الإسلامية ومدى تطبيقها، فلولا التحلي بها لكان الإنسان يأكل كما تأكل الأنعام، ويعيش دون هدف أو غاية في حياته.

والمتدبر للقرآن الكريم يجد أن أساليب الأنبياء -عليهم السلام- في دعوة أقوامهم تبدأ بالدعوة إلى القيم الحضارية العليا، وبيان أن الإنسان إنما يقاس بقيمه النبيلة وإيمانه بها، فهي الفاصل بين الكفر والإيمان، ولم يتعرض الأنبياء -عليهم السلام- لعداوة أشد من عداوة الذين لا يحتفلون بالقيم الحضارية ولا يابتهون بها، فلو طرد -عليه السلام- أنكر الفاحشة وفساد الفطرة، في قوله تعالى: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْتَهَرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ *

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (56-58: النحل)، ففي قصة سيدنا لوط يتبين أن القيم الحضارية تكون في استقامة الاعتقاد والاجتماع، وهي حد فاصل بين البناء والهلاك.

ثم بين القرآن الكريم أن ما جاء به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم - هو سبب الحياة، وذلك في معرض حديثه عن أهمية القيم الحضارية في الإسلام وأثرها في بناء الأمة وتحقيق ترابطها الاجتماعي فقال: (بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلرُّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) [24: الأنفال]، أي لأجل ما هو سبب حياتكم الروحية⁽³⁰⁾، والاستجابة هنا لله تعالى تشريعاً وللرسول بلاغاً⁽³¹⁾، وهذا أمر للمسلم بالاعتصام بقيمه؛ ليظفر بالسعادة المادية والروحية، ولا شك أن رعاية المسنين في الإسلام تحقق السعادة المادية والروحية للفرد والمجتمع؛ لأن الحياة الحقيقية هي التي تسعد الإنسان، وتسعد من حوله، وبذلك تتآزر الطاقات في زيادة الإصلاح في كل الأمور النافعة والمفيدة⁽³²⁾، ولهذا أسمى الله تعالى كتابه الكريم روحاً في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَتْلُو مِمَّا الْكُتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [52: الشورى]، وهذا دليل على أن القيم الحضارية هي الروح التي تمد الأمة المسلمة بالحياة.

وأرجع القرآن الكريم أهمية القيم الحضارية إلى أثرها في تنظيم علاقات الإنسان التي تشمل علاقته بربه الكريم، وبنفسه التي بين جنبيه، وعلاقته بالآخرين المسلمين وغير المسلمين، وبالكون وما حوى من الحيوان والنبات والموارد الطبيعية والبيئية التي تحيط به وتفاعله معها، فهذه المخلوقات أمم متماثلة كما في قوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) [38: الأنعام]، وقد شكل المفهوم القرآني لخلق الإنسان وغاية وجوده وفلسفة الحياة، في قوله: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) [2-3: الإنسان].

ومن القرآن الكريم نذكر أن القيم الحضارية من أداء الأمانة والوفاء بالعهد والصدق والعدل وحسن الرعاية للمسنين وغيرهم ذات أثر عظيم في العلاقة بين العبد وربّه، قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) [69: العنكبوت]، وهذا النص فيه دلالة على أن المجاهدة تهدي إلى الصراط المستقيم، وأن اطمئنان القلب لا يتم إلا في ظل الاستمسك بالقيم الحضارية، وتشكل الهداية والاطمئنان حاجزاً للعقل المسلم ودافعاً للفكر، يفتح له آفاق العطاء والتفاعل مع الآخرين تعلماً وتعليماً.

وتتجلى أهمية القيم الحضارية وأثرها في تهذيب نفس المسلم وتمييزه عند النظر إليها في ضوء الواقع الاجتماعي في عصر التنزيل: "قيمة العناية بالنظافة الشخصية تعتبر من أهم مزايا الإسلام وقيمه الحضارية؛ لأن العرب كانوا شعباً أقرب إلى البداوة، ولم يعد لأكثرهم الاهتمام بالنظافة في جسمه وثوبه

وبيته، وكذلك الديانات التي كانت تسود جزيرة العرب وما جاورها، لم تكن تهتم بأمر النظافة أو تحت عليها»⁽³³⁾.

ولما كان الإنسان مدنيًا بالطبع⁽³⁴⁾، يألف ويؤلف، فقد وضع الإسلام أسس العلاقات لرعاية المسنين، ووضح قواعد تشريعها، ولا شك في أن أثر القيم الحضارية في الإسلام لا يقتصر على تركية النفس؛ بل يتعدى ذلك إلى العلاقات بين المسلم وأخيه المسلم، وكذلك علاقته بغير المسلم كالكتابي ونحوه، فهذه العلاقات الإنسانية تكون نافعة ومثمرة في ظل القيم الحضارية التي تحدد الحقوق والواجبات وتبنيها على المصلحة العامة والمقاصد العامة للاستخلاف.

وعدم الاهتمام والرعاية بهذه الفئة وخاصة الوالدين معصية للخالق -جل وعلا- وموجب لعذاب الله تعالى، في قوله: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفَرَىٰ بَطْلَمَ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) [117: هود]، يقول القرطبي: أي: لم يكن يهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط، ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب⁽³⁵⁾.

وقد بنيت القيم الحضارية في الإسلام على مبدأ راسخ يسهم في نشرها بين أفراد المجتمع ترغيباً وترهيباً، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يجب أن يكون مظهر المجتمع ومخبره، وفلاح المجتمع مرهون بتحقيق هذا المبدأ الذي يعتبر أعظم وسائل الدولة في تحقيق الخير والإصلاح ومحاربة الفساد، وهو ما يميز المجتمع الإسلامي عن المجتمعات الأخرى التي تفرقت واختلقت، ولم تُعن بمسئلتها، بل ومزقتهم كل ممزق، في قوله تعالى: (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [104-105: آل عمران]، ومعنى الآية: "أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه"⁽³⁶⁾، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" [مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، ص 51]، وفي الآية الثانية ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم⁽³⁷⁾.

إن الاختلاف والافتراق يخلق أزمة للقيم الحضارية، عندئذ يكون الانهيار، وذلك يتطلب ثورة ثقافية عارمة تكون بمثابة انطلاقة جديدة للحياة الاجتماعية من نقطة الصفر⁽³⁸⁾.

وذلك يوجب على الأمة الإسلامية أفراداً وجماعات، حكماً ومحكومين، علماء وطلاب علم، أن يحافظوا على منظومة القيم، التي إن سلمت سلم المسلمون، وإن عطيت هلكوا وخسروا، وقد ضرب الرسول مثلاً رائعاً بجسد هذا المشهد في حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- عن النبي صلى الله عليه وسلم -قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً" [البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب القسمة والاستهام، ص 471-472].

إن التربية القيمية في العصر الحديث يجب أن تقوم على: "تقديم المبدأ والمقياس الخلقي الإسلامي، وتدريبه من خلال مواد المنهج، ونهضة البيئة الملائمة للسلوك الحسن"⁽³⁹⁾.

إن غرس القيم الحضارية الإسلامية في النفوس ضرورة شرعية وواجب ديني؛ لما لها من أثر بارز في توحيد الصف، وهي مسؤولية الأسرة والمسجد والمدرسة والمجتمع ووسائل الإعلام وغيرها، مما يمكن الأمة المسلمة في الأرض، وأن تؤدي رسالة الاستخلاف المنوطة بها؛ لأن مستقبل الإسلام مرهون بالاعتصام بقيمه الحضارية.

المبحث الثاني: رعاية الوالدين في القرآن الكريم

إن من أهم القيم الحضارية في القرآن الكريم رعاية الوالدين سواء أكانا مسنين أم كانا دون ذلك، وقد تضافرت الآيات القرآنية لبيان فضلها وإثبات حقهما على الأبناء، وإلزام الأبناء بخدمة الوالدين والبسر والإحسان إليهما في كل الأحوال ومن كل الوجوه، ويركز القرآن الكريم بشكل خاص في حال كبر السن وضعف الشيخوخة.

ويُعَدُّ الاهتمام بالوالدين لبنة أساسية في تقدم المجتمع ورقية في شتى المجالات، ومعيار توزن به أفكار الأمم ومواهبها، ويعرف رقي الأمة من انحطاطها، وتقدمها من تأخرها.

إن برّ الوالدين فريضة لازمة، وعقوبتهما محرم بنص الكتاب والسنة، ولقد أولى القرآن الكريم هذه الفريضة عناية فائقة واعتبرها من أهم الواجبات السلوكية بعد واجب التوحيد، ويقول السمرقندي: "إنه لو لم يذكر الله تعالى في كتابه حرمة الوالدين ولم يوص بهما، لكان يعرف بالعقل أن حرمتها واجبة، وكان الواجب على العاقل أن يعرف حرمتها ويقضي حقهما، فكيف وقد ذكر الله تعالى وأمر في جميع كتبه: التوراة والإنجيل والزيور والفرقان، وأوحى إلى أنبيائه ورسله وأوصاهم بحرمة الوالدين ومعرفة حقهما"⁽⁴⁰⁾.

ولأجل هذه المكانة الرفيعة التي تبوأها الوالدان قرن المولى سبحانه وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين، في قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [23: الإسراء]، فالإحسان المأمور به الإحسان الكامل الذي لا إساءة فيه، وتتكبر لفظ "الإحسان" هنا يدل على التعظيم، أي إحساناً عظيماً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة، وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك⁽⁴¹⁾، فكان تعبير القرآن في غاية الدقة حين قال: "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" ولم يقل "بالآباء" فبين أن العلة هي الوالدية، ذلك الوسام الذي لا يكتسب ولا يباع، ولا يوهب ولا يشتري، فنعمة الموصول ونعم الواصل.

ولقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحث على برهما والإحسان إليهما؛ لاشتغال كلمة: البر "على كل خصال الخير، والتوسع في الإحسان إلى الوالدين، وضده العقوق"⁽⁴²⁾، وما ذاك إلا لعظيم مكانتهما وكبير منزلتهما عند الله تعالى، فمن هذه الأساليب:

1. أسلوب الأمر والنهي، في قوله تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [36:]، وقوله: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [23: الإسراء]، "فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة له والإذعان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته، وشكره بشكره وهما الوالدان"⁽⁴³⁾. فقال سبحانه (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [151: الأنعام].

2. أسلوب الميثاق المؤكد باليمين، في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [83: البقرة]، إخبار في معنى الأمر والنهي، كما تقول: تذهب إلى فلان، وتقول له كذا، وأنت تريد الأمر، وهو أبلغ وأكد من صريح الأمر والنهي؛ لأن الأمر أراد بهذه الصيغة إظهار المأمور به، وكأنه سورع إلى الامتثال والانتهاز⁽⁴⁴⁾، ولا يأتي مثل هذا الأسلوب إلا في الأمر المهم الذي عظم خطبه وجل خطره.

يقول القرطبي: "وقد قرن الله -عز وجل- في هذه الآية حق الوالدين بالتحديد؛ لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشأة الثاني -وهو التربية- من جهة الوالدين، ولهذا قرن الله تعالى الشكر لهما بشكره"⁽⁴⁵⁾.

3. أسلوب المدح والثناء، كما في قوله تعالى عن يحيى -عليه السلام-: (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) [14: الروم]، وقال وعن سيدنا عيسى -عليه السلام- وهو يلجح لسانه بكلمة البر منذ أن كان صبياً في المهد: (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) [32: مريم].

ومفهوم الآيات أن البر بالوالدين لا يصدر إلا عن نفس قد امتلأت بالرحمة، وانطبعت بطابع الإحسان، ولا تنزع هذه الصفة النبيلة إلا من نفس جبار مبالغ في الجبروت، وأصل حد النهاية في العصيان والشقاوة، ومن برّ عيسى بوالدته -عليهما السلام- أنه الشاهد نفسه على براءة أمه، والدليل لا يشكك في المدلول، وكأنه يقول للقوم: إياكم أن تظنوا أنني سأتجراً على أمي، أو يخطر ببالي خاطر سوء نحوها⁽⁴⁶⁾.

ويتبع ذلك استحقاق كل بار بوالديه هذا الثناء والمدح، -كما وصف الله تعالى المؤمن البار بالوصف الجميل، وبالذكر الطيب، وبالثناء الحميد، ودعائه لله -جل وعلا- في قوله: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [15: الاحقاف].

4. أسلوب الوصية، كما في قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) [8: العنكبوت]، وقوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) [14: لقمان]، وقوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) [15: الاحقاف].

ويلاحظ أن الوصية بالوالدين قد تكررت مراراً في القرآن الكريم، بالإحسان إليهما والبر بهما، وامتثال أمرهما ونهيهما⁽⁴⁷⁾، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله، دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدّها⁽⁴⁸⁾.

إن برّ الوالدين لا يقتصر على الوالد المسلم أو الأم المسلمة، بل هو مطالب ببرهما، حتى وإن كانا كافرين، بل إن جاهدها ليشرك بالله فعليه واجب برّهما، "ليعلم أن الوصاية بالإحسان إلى الوالدين لا يقتضي طاعتها في السوء ونحوه"⁽⁴⁹⁾، ثم إن الأمر ببر الوالدين ليس مختصاً بهذه الأمة الإسلامية، بل هو مما كتبه الله تعالى على السابقين، وما ذاك إلا لأهميته وجوبه، قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ) [83: البقرة].

وهذا مما يؤكد هذا الواجب العيني، ويوحى بالعموم والشمول لكل ما تحتمله معاني البر والإحسان والخير تجاه الوالدين، وضدها يشمل كل معاني العقوق والعصيان، ومن هنا يأتي البر والإحسان إلى الوالدين من أوسع الأبواب وأعمها وأشملها.

وأن مما يشملُه أوجه الرعاية للوالدين، موافقة الوالدين على أغراضهما الجائزة بالمباحة، قال هشام بن حسان قلت للحسن: "إني أتعلم القرآن وإن أُمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: تعش العشاء مع أمك تقربه عينا، أحب إلي من حجة تحجها تطوعاً"⁽⁵⁰⁾، وكذلك تقديم برهما على الجهاد في سبيل الله تعالى.

ويدخل في الإحسان إليهما مساعدتهما في أعمالهما، مهما بلغ الابن من المنزلة والمكانة الاجتماعية، أو بلغ من الوظيفة أو المال أو الجاه، فإنه يبقى في عين والديه كما عهداه صغيراً مدلاً، إذ ليس من البر أن يتأفف الابن من مساعدة أبيه وأمه، فيساعد كل منهما فيما يخصه من العمل، والتودد إليهما بكل ما يمكن كتقبيل اليد، أو الرأس، أو الاحتضان، أو المعانقة، والجلوس معهما بكل أدب وتوقير واحترام.

إن إدخال السرور على الوالدين من وجوه برهما والإحسان إليهما، وذلك بالجد والاجتهاد في كل ما يحبانه ويرغبانه، لا سيما في الدراسة حتى يحقق الابن النجاح الذي يقر به عيني والديه، ويوفر عليهما النفقات، ويتحقق هذا باهتمام الإخوة الكبار بالصغار سواء بالتوجيه، أو المذاكرة، أو الاعتناء بهم، ومتابعتهم وتعليمهم.

إن الكلمة الطيبة قبل أن تكون سهلة المنطق، محببة إلى النفس، مرغوبة إلى السمع، فهي صدقة ومعروف، قال تعالى: (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى) [263: البقرة]، ولعظيم مكانة الكلمة الطيبة وفضلها، فقد قرنها الله سبحانه مع أعظم أركان الإسلام: الصلاة والزكاة، وأمر بها لجميع الناس، والوالدان أولى بذلك، قال تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) [83: البقرة]، والكلمة الطيبة وقع لطيف على النفس، حيث تجبر خاطر، وتتبعش المشاعر، وتحبي الوجدان، وتبعث الأمل، كما أنها منبثقة من حسن المعاملة المشتملة على الرفق واللين واللفظ، قال تعالى: (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [23: الإسراء].

والقول الكريم المذكور في الآية: القول السالم من العيب بتأدب وتعظيم وتوقير⁽⁵¹⁾، وذلك يعني التعبير الصادق لأحاسيس الإنسان اللطيفة، وعما يكنه القلب من المودة والاحترام وما يحمله من تجبيل وتوقير، والوالدان أحق الناس بمثل هذه المعاملة الطيبة والسمات النبيلة.

وفي هذا يقول سيد قطب: "هي الرحمة تبلغ شغاف القلب، وحنايا الوجدان، ترق وتلطف حتى لكانها الذل الذي لا يرفع عيناً، ولا يرفض أمراً، كأنما الذل جناح يخفضه، إذاً للسلام والاستسلام"⁽⁵²⁾، قال تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [24: الإسراء].

إن هذا الخفض يكون من الرحمة المتناهية المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، فإنهما قد وصلا من العمر غاية في الضعف والشيخوخة، فلا يناسب معهما إلا غاية الشفقة والذل والاستكانة

والتواضع، فكما أنت أيها الابن كنت صغيراً تتأذى من أتفه الأسباب والأشياء والأصوات والحركات، فكذلك هما الآن يلحقهما أذى من أتفه الأشياء.

فإذا أنعم الله عليك أيها الولد بالإسلام، فإن الاختلاف في العقيدة، والأمر بعدم طاعتها في العقيدة، لا يسقط حقهما في المعاملة الطيبة، والصحبة الكريمة، فليس من حق الولد ولا من اختصاصه، ولا فيما شرعه الله عليه في أن يقسو على والديه لأجل العقيدة، بل ليس من العدل أن يكون الولد في غاية من الغنى والراحة، والأبوان في تعاسة وشقاء، فإن الكفر لا يسقط حق الوالدين بحال من الأحوال، قال تعالى: (وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [15]: لقمان].

يقول القرطبي: "في الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق" (53).

ومن أروع القيم الحضارية لرعاية الوالدين الدعاء لهما في حياتهما ومماتهما، فإن حق الوالدية لا ينقطع بالموت، بل يبقى قائماً كما كان في حال حياتهما، لا سيما الدعاء لهما عن ظهر الغيب، فأفضل الرغائب، دعاء الغائب لأخيه، كما في قوله تعالى: (وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)، ووجه الشاهد في الآية الكريمة: استمرارية الدعاء للوالدين في حياتهما ومماتهما.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، يقول القرطبي: "فترحم أيها الابن كما رحماك، وترفق بهما كما رفقاً بك، إذ ولياك صغيراً جاهلاً محتاجاً، فأثرك على أنفسهما، وأسهر ليلهما، وجاعاً وأشبعاك، وتعرّياً وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل سبق والتقدم" (54).

وليكن الرسل والأنبياء -عليهم السلام- قدوتنا في ذلك، قال تعالى حكاية عن إبراهيم -عليه السلام-: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) [41: إبراهيم]، وجاء في موضع آخر من الكتاب العزيز وهو يدعو لوالده بالمغفرة والهداية مع اعترافه بضلال أبيه وغوايته، في قوله تعالى: (وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) [86: الشعراء].

ويقول سبحانه مخبراً عن نوح -عليه السلام-: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) [28: نوح].

وروى عن بعض السلف أنه قال: "إن في ترك الدعاء للوالدين، يضيق العيش على الولد" (55).

ولم تقف رعاية الوالدين عند هذا الحد فحسب، بل اعتبر الإسلام بر أصدقائهما برّ لهما بعد وفاتهما، لحديثه عليه السلام: "إن أبرّ البرّ صلة الولد أهل ودّ أبيه" [مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، حديث رقم (2552)]، فحين يزور أفراد المجتمع أصدقاء آبائهم فهم بذلك يبرون آبائهم، وذلك يعني أن الجيل المتوسط في المجتمع قد ارتبط تلقائياً بجيل كبار السن، وأصبح المسنون جزءاً لا يتجزأ من المجتمع.

ويدخل في هذا كل من يعيش في ظل المجتمع الإسلامي، من غير المسلمين، وقد ذكر أبو يوسف في كتاب "الخراج" نص الوثيقة التي كانت بين خالد بن الوليد -رضي الله عنه- ونصاري نجران، وكان مما فيها: "وجعلت لهم: أيما شيخ ضعيف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه: طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام" (56)، وقد كتبت هذه الوثيقة في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وأقرها، كما أقر من كان مع خالد من الصحابة -رضي الله عنهم- ولم يعترض عليها أحد، ومثل هذا يُعدّ إجماعاً (57).

فكل مسنّ ضعيف له حقوق يجب أخلاقياً أن يؤديها من ألزمهم الإسلام بذلك سواء كانوا أبناء وورثة، أم أفراد الحي والبلد، أم مسؤولي دول وحكومات.

ومما تقدّم نستطيع القول: إن رعاية الوالدين والإحسان إليهما تُعدّ مظهراً حضارياً في القرآن الكريم، وقيمة حضارية عجزت القواعد والنظريات الدولية الحديثة أن تتجلب مثلها، فراحت تخطط في ترقية ما أفسدته نظمها التربوية، بإنشاء دور وملاجئ للعجزة والمسنين؛ لتخفي بذلك عار تخطيطها في معالجة مثل هذه الموضوعات الاجتماعية المهمة.

وأعظم قيمة في هذه الآيات أنها تشكل منظومة متكاملة للحد من ظاهرة طرد الآباء والأمهات من البيوت، لا عن طريق الجبر والقهر؛ لأنه يولد قهراً داخلياً، بل بوساطة تكليف إلهي لكل الأبناء بحفظ عليهم دنياهم وأخراهم، فيحدث ضمائرهم الحية بالإيمان، وقلوبهم المشبعة بالقوى.

فلو أخذ المسلمون بذلك؛ لما كانت الحاجة ماسة لطرح حلول لا تزيد المسنين إلا ذلاً ومهانة، وإبعاداً عن مجتمعهم الذي يعيشون فيه.

فالمجتمعات الغربية الحديثة لا يكاد يرى فيها الابن والبنات أبويهما بعد البلوغ إلا مصادفة، وقد تمر سنوات طويلة لا يرى كل منهم الآخر، وقد يعيش أحدهم في حالة الكبر في بيته، لا يزوره أحد، ولا يسأل عنه أحد، ولا يهتم به أحد؛ لذا كانت الشيوخة هناك موحشة أشد الإحاش، وإن توافرت للكبير الحاجة المادية، ولهذا حرص الناس هناك على اقتناء الكلاب؛ لتعويضهم عن أبنائهم وبناتهم، فلا غرو إن احتاجوا إلى تخصيص يوم للأب أو للابن، يسمى عيد الأم أو عيد الأب، ومن المفترض أن تكون كل أيامهم عيداً،

والأحسن حظاً من هؤلاء الذين ينتقلون إلى دار العجزة والمسنين لقضاء أيامهم الأخيرة فيها، فإن عاطفة الأمومة والأبوة لا يشبعها الطعام والشراب فحسب، فالشوق إلى فلذات الأكباد من الأولاد والحفدة لا يطفئه إلا اللقاء والأنس والمشاركة في الحياة، فإن من حق الأطفال والأجيال الناشئة أن يعيشوا أجدادهم، ويأنسوا بهم، ويسمعوا لحكاياتهم، ويستفيدوا من تجاربهم، والا تتقطع الصلة بين الجيلين، ولهذا سمى القرآن الكريم الجدَّ أبا، في قوله تعالى: (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) [38: يوسف].

المبحث الثالث: الآداب القرآنية في التعامل مع المسنين

لم تطرح مشكلة المسنين في المجتمعات الإسلامية قديماً، لكون القيم الإسلامية والأعراف التي تحكم المجتمعات تحمي هذه الفئة بسياج من الرعاية والتكريم والعرفان لهم بالفضل، فالمسن يعيش عزيزاً كريماً داخل أسرته، وكل فرد يجله ويقدم له العون والمساعدة في كل ما يطلبه.

وإذا لم يكن للمسن من يكفله، فلن يشعر بالغربة أيضاً؛ لأن أقاربه وبقية أفراد المجتمع يعون مسؤوليتهم تجاه هؤلاء الآباء، باعتبارهم أسرة كبيرة واحدة، ولا يتركونهم للضياع نفسياً واجتماعياً واقتصادياً، لقوله -عليه السلام-: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (5665)].

إن القيام بحقوق المسنين في الإسلام عبادة؛ لأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وتشمل برّ الوالدين والإحسان إلى الشيوخ والضعفاء ودفع حاجاتهم وضرائهم، وتوقير الكبار والعلماء، وإقالة العثرات، واصطناع المعروف دقه وجله⁽⁵⁸⁾، ومع هذا التوجيه الإسلامي نرى إجراماً تجاه هذه الفئة⁽⁵⁹⁾، في وقت هم أشد حاجة إلى المحبة والإحسان.

فليس من الوفاء لهذا الجبل الكبير في السن أن يُهملوا أو يتركوا فريسة الضعف أو العجز أو المرض أو الحاجة، ويجب رعايتهم والعناية بهم، عملاً بأحكام ديننا الحنيف، ورسائله الغراء التي تجعل الأسرة متصافحة متأزرة على السراء والضراء، ويُعدّ وجود الكبار في المنزل امتيازاً وبركة ووقاراً، والشيوخوة مصدر استقرار، وجمع الشمل، ولمّ الأولاد، وتحقيق النوام والمحبة والود بين أفراد الأسرة كلها، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، والكبار موضع الصدارة والقيادة في الأسرة المسلمة، يأتمر الكل بأمرهم، ويحذر الجميع من مخالفتهم⁽⁶⁰⁾.

وعلى أساس مواصلة العطاء والإنتاج ورفض العجز، ومقاومة الوهن والضعف، أقام الإسلام رعايته التكريمية الإيجابية للشيوخ المعمرين، ولم يأذن لأحد أن يتوهم في نفسه العجز بالتقاعد عن العمل، والكد

والعناء بما يناسب عمره من التحرك والنشاط⁽⁶¹⁾، ولنستعرض أهم الآداب القرآنية في التعامل مع المسنين في ضوء القيم الحضارية العملية في الإسلام:

1. إجلال الكبير وتوقيره:

إن الإنسان في العقيدة الإسلامية من أفضل خلق الله وأكرمهم على الله، فقد أسجد له ملائكته -الكرام- حين خلقه، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) [71-73: ص]، فهو سجد تحية وإكرام وعطاء واحترام⁽⁶²⁾، وقال سبحانه: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [70: الإسراء]، فالمسن له مكانته ومنزلته من عموم هذه الآيات.

قال سبحانه: (الله الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِّن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) [54: الروم]، وضعف الشيخوخة هنا يسري في كل الأعضاء، حتى في العلم، وفي الذاكرة⁽⁶³⁾، لقوله تعالى: (لَكَيْلًا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) [5: الحج]، لذلك تلحظ الدقة في الأداء في قول سيدنا زكريا: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [4: مريم]؛ لأن العظم آخر مخزون لقوت الإنسان، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة، فإذا لم يتغذ الجسم بالطعام يمتص من هذا المخزون من الشحوم والدهون، ثم من العضل، ثم من نخاع العظم، وهو آخر مخزون للقوت في الجسم، وذلك يعني أن زكريا وصل إلى مرحلة الحرص، أي الساقط الذي لا يقدر على النهوض⁽⁶⁴⁾، وهي مرحلة لا أمل معها في قوة⁽⁶⁵⁾، وأكد هذا المعنى بقوله: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [4: مريم]، وقوله: (حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) [85: يوسف].

ولهذا كان للشيب فضل في الإسلام، وللمكانة المتميزة للمسلم المسن ذي الشيبة، بأن الضعف والشيب ليسا مذمة للمؤمن، بل هما مقترنان بالخيرية، إن كان العمل حسناً، لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم- أن رجلاً قال: "يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: من طال عمره وحسن عمله، قال: فأأي الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله" [الترمذي، السنن، كتاب الزهد، حديث رقم (2330)]، وقوله -عليه السلام-: "إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم" [البخاري، صحيح البخاري، الأدب المفرد، ص130].

وحتى لا يصاب الشيخ المسن الذي ألم به الشيب بالفشل والتشاؤم من قرب الأجل، وضعف قواه، بين النبي صلى الله عليه وسلم- قيمة الشيب في الإسلام، وأنه علامة من علامات القبول والرضا عند الله تعالى، فقال عليه السلام: "من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة" [الترمذي، السنن، كتاب

فضائل الجهاد عن رسول الله، باب في فضل من شاب شيبة في سبيل الله، حديث رقم (1635)، وإسناده حسن صحيح].

لذلك حرص الإسلام على صون كرامة المسلم في كل مراحل عمره فقد عني عناية خاصة بتوقير الكبار واحترامهم، وبذلك رسم الإسلام المعالِم لمعاملة الكبير المسن، وجعلها معياراً ووصفاً لأمة الإسلام⁽⁶⁶⁾، لقوله -عليه السلام-: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا" [الترمذي، السنن، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث رقم (1919)]، وقوله: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا" [أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب الرحمة، حديث رقم (4943) وإسناده حديث حسن صحيح].

وحرف الواو في الحديثين بمعنى أو، فالتحذير من كل منهما وحده، فيتعين أن يُعامل كل منهما بما يليق به، فيعطى الصغير حقه من الرفق به، والرحمة والشفقة عليه، ويعطى الكبير حقه من الشرف والتوقير⁽⁶⁷⁾.

ومعنى الحديثين: أنه ليس مثلاً، وليس على طريقتنا وسنتنا، وليس من أهل الكمال من لم يرحم صغيرنا؛ لعجزه وبراعته عن قبائح الأعمال، وقد يكون صغيراً في المعنى مع تقدم سنه لجهله وغباوته وغفلته، فيرحم بالتعليم والإرشاد والشفقة، ويوقر كبيرنا لما يستحق من التعظيم والتبجيل، ولما خص به من سبق الوجود، وتجربة الأمور، وسالف عبادة المعبود⁽⁶⁸⁾.

فمن مظاهر الاحترام والتوقير للمسن: القيام له لا سيما إذا كان عالماً أو فقيهاً أو حافظاً للقرآن، وعدم الكلام في المجلس إلا بأذنه، وإجلال الكبير في صدر المجلس، ومخاطبته بأدب وتلطف واحترام، وقد أفراد الإمام البخاري ثلاثة أبواب في بيان "باب فضل الكبير" و "باب إجلال الكبير" و "باب يبدأ الأكبر بالكلام والسلام"⁽⁶⁹⁾.

قال الحافظ العراقي: "فيه التوسعة للقدام على أهل المجلس إذا أمكن توسعهم له، لا سيما إن كان ممن أمر بإكرامه من الشيوخ شيباً أو علماً أو كونه كبير قوم"⁽⁷⁰⁾.

والإسلام جاء ليحض الناس على احترام البشر، ويعامل الخلق على أساس التقدير والاحترام، وعلى وجه الخصوص كبار السن وأصحاب الفضل، واحترام الكبير وإجلاله في المجتمع دليل على رفعة وسمو ذلك المجتمع⁽⁷¹⁾.

إن للمسن في الإسلام مكانة لا تدانيها مكانة، فلا يجوز التأفف منه أو انتهاره، ولا يخاطب إلا بالقول الكريم، ولا يعامل إلا بالتوقير والإحسان، وإذا وقع على المسن إيذاء مادي أو معنوي بالاستهزاء أو

السخرية كان معصية، يعزر ويؤدب فاعلها، "أن من مشى مع إنسان أكبر منه فيمشي عن يمينه، يقيمه مقام الإمام في الصلاة، وإن كانوا جماعة، فيستحب مشي الجماعة خلف الكبير" (72).

وهذا خالد بن الوليد- رضي الله عنه- يمارس دوره في رعاية المسنين ويعطيهم حقهم من الرعاية والعناية في المجتمع، حتى وإن لم يكونوا مسلمين، فلقد صالح أهل الحيرة، وجاء في صلحه معهم أنه قال: "وجعلتُ لهم أئماً شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين..." (73).

2. حق المسن في العمل ما دام قادراً عليه:

من حق المسن أن يمكن من الكسب الحلال ما دام يستطيع العمل (74)، ولو بعد سن التقاعد لا سيما وأن كثيراً من المهن تحتاج إلى ذوي الخبرات المتمرسية، فما دام للمسن القدرة البدنية والذهنية لمتابعة وظيفته فله ذلك، مع مراعاة الأنظمة الاقتصادية السائدة بحيث لا يخل بترتيبات إدارية أو اقتصادية أخرى، وهذا الحل مقبول جداً في كثير من دول العالم فهو لا يستلزم توجيهاً أو تأهيلاً مهنيًا جديداً، وهذا يفسح المجال للمسن ويمكنه من أن يستمر في اتصاله بالمجتمع، ولا ينعزل عن تأدية دوره الإيجابي فيه (75).

فلا يستهان بأي عمل قدمه الكبير، إذا كان يصلح نواة للتعديل، والإكمال، والتحسين والإنهاء، ولا يصح حجب العمل عن الكبير أو منعه من ممارسة الوظيفة المناسبة لإمكاناته وطاقاته الفكرية، وإسهامه في الاتجازات المختلفة بحسب الميول والخبرات، دون إرهاق جسده أو توريث الوهن والضعف في قواه البدنية، فحينئذ لا نحمله ما لا يطيق؛ فإن جميع التكاليف الشرعية والدينية تعتمد على الطاقة أو الاستطاعة (76)، قال تعالى: (لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وَسْعَهَا) [286: البقرة]، وقوله: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) [16: التغابن]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا كلفتموهم فأعينوهم" [صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، حديث رقم (30)].

وإذا عاملنا كبار السن بهذه الروح الطيبة والمشاركة الفاعلة، فإننا نكسب منهم المزيد، مع تنامي الخبرات، ونحميهم من الاسترخاء والكسل الذي يؤدي عادة إلى كثرة الهموم والقلق والأمراض وضعف الجسم، ونسهم في هذه المشاركة في ملء الفراغ لديهم، وإشعارهم بكرامتهم وذاتيتهم وأهميتهم في الحياة، دون أن يحسوا بأنهم أصبحوا ثقل أو أعباء على غيرهم (77).

فمن حق المسن إيجاد الأنشطة وورشات عمل ومراكز تدريب مهني في مختلف الاختصاصات، وحشد القادرين منهم على الحركة والعمل فيها؛ لتدريبهم وتشغيلهم وتوظيفهم، ولو بمقدار أربع ساعات في اليوم، فتفتح أمامهم أبواب الأمل والطموح، ويمكنهم من تجديد حيويتهم واستمرار نشاطهم، والإفادة من خبراتهم وعطاءاتهم، ولو كانت قليلة أو محدودة، وهذا لون من إشراكهم في مسيرة البناء والتعمير والتنمية، التي

هي ضرورية في كل دولة، ويؤدي هذا إلى التخفيف من أعباء الإنفاق الصحي والاجتماعي الذي تقوم به الدول، ويسهم في تقليل عبء الموازنة العامة للنفقات العامة، ويساعد على رفع مستوى الدخل العام.

إن العمل للمسن رياضة وشرف وعز نفس، كيلا تضعف قواه وعزيمته وجسده، بل هو مساعد على نمو الملكات العقلية وإذكاء الأفكار⁽⁷⁸⁾.

3. حق المسن في الرعاية الأسرية والإنفاق عليه:

قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) [14: لقمان]، وفي الآية دلالة على أن حق الوالدين من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدّها وجوباً⁽⁷⁹⁾.

فإذا لم يتوافر للمسن مصدر دخل يكفيه، فإن الإسلام يوجب على أبنائه القادرين نفقة واجبة لتأمين حاجاته الأساسية من الطعام والشراب، والعلاج والدواء، والإيواء والسكن، واللباس الساتر الملائم⁽⁸⁰⁾.

وهذا يوجب على الحكومات الإسلامية العناية في كليات الطب البشري بدراسة اختصاص أمراض الشيخوخة، وتوافر عيادات المتخصصين فيها، وعناية الدولة والهيئات الاجتماعية فيها بمعالجة هذه الأمراض الكثيرة الظهور، من طريق تخصيص مراكز صحية خاصة بها، ومنتشرة في أماكن متعددة، ورفد هذه المراكز بالأطباء ودوامهم في ساعات معينة، ومنحهم الأدوية أو العلاجات المناسبة، أو التوجيه لرياضة معينة، ومعالجات فيزيائية متطورة، تسهم في تخفيف المرض، أو استئصاله، أو منع مضاعفاته، وفي ذلك خير كبير للأمة والمجتمع⁽⁸¹⁾.

وأجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسب لهما، ولا مال، واجبة في مال الوالد⁽⁸²⁾، بل يلزم الرجل إعفاف أبيه، إذا احتاج إلى النكاح؛ لأن ذلك مما تدعو حاجته إليه، ويستضر بفقده، فلزم ابنه له كالنفقة⁽⁸³⁾.

وإذا عجز كبير السن عن نفقته، حيث لا يملك مالا، ولا يقدر على التكسب، فيجب على قرابته الإنفاق عليه، وبخاصة إذا كان الكبير من الأصول (الآباء والأجداد والأمهات والجذات)⁽⁸⁴⁾.

ولا يجوز للولد أن يتخلى عن رعاية والديه، أو أحدهما، بإيداعهما إلى دور الرعاية الاجتماعية، متعللاً بعجزه عن رعايتهما لكبرهما أو لعدم استطاعة زوجه رعايتهما، أو رفضها لذلك، أو لكون دخله لا يكفي إلا لنفقة أولاده، أو لكون الدولة توفر لهما رعاية أفضل مما يستطيعه هو؛ لأن ولاية الدولة ولاية عامة، وولاية الولد ولاية خاصة، وهذه الولاية أوجب وألزم من الولاية العامة⁽⁸⁵⁾.

ولقد اقتضت أصول الشريعة وقواعدها وجود نوع من الترابط بين أفراد الأسرة، يلمّ شعئها، ويشدها إلى بعضها، ويشعر بواجبها نحو أفرادها؛ وذلك بإلزام الغني القريب بالنفقة على المسنّ الفقير العاجز عن التكسب، حماية له من الضياع، وإنفاق الغني على الفقير من أقاربه واجب محتم يتعين القيام به، فيعطيه بقدر ما يكفي؛ فإذا ضاق ماله عن جميع الأقارب، بدأ بالأقارب من ورثته وذوي أرحامه.

وإذا لم يكن للمسّن أسرة، أو عجزت أسرته عن احتضانه، فمن حقه على المجتمع أن يوفر له جواً عائلياً، كأن تتعهد أسرة من الأسر، أو يُهيأ له مرافق في منزله، أو يعيش في دار للمسّنين تتوافر فيها شروط الحياة الكريمة، ومن حق المسن على من تربطهم صلة قربي، أو الجوار أو الصحبة، أن يعودوه إذا مرض، ويزوره إذا لم يمرض، ويخففوا عنه مشاعر العزلة والوحدة⁽⁸⁶⁾.

4. حق المسّنين في تصدر المجالس:

ومن القيم البارزة لتعظيم وتوقير الشيوخ الكبار تقديمهم على الصغار في تصدر المجالس، قال -عليه السلام: "كبر الكُبر" [صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الكبير، ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال، حديث رقم (5791)]، ومعنى الحديث: أي عظم من هو أكبر منه وقتمه في التكلم، وفيه إرشاد إلى الأدب يعني أنه لينبغي أن يتكلم الأكبر سناً أولاً⁽⁸⁷⁾، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: أن فيه حقاً على تقديم الكبار لما خصّوا به من سبق الوجود، وتجربة الأمور، وسالف عبادة المعبود⁽⁸⁸⁾.

وقد قدّم النبي صلى الله عليه وسلم -درساً قيماً في القيم الإنسانية والحضارية في التعامل مع المسّنين، فحين جاء أبو بكر رضي الله عنه - يوم فتح مكة بأبيه أبي قحافة، قال صلى الله عليه وسلم: "لو أقررت الشيخ في بيته لأتينا" [أخرجه الحاكم في المستدرک كتاب المناقب، باب ذكر مناقب أبي قحافة والد أبي بكر رضي الله عنهما، حديث رقم (5064)، وأحمد في مسنده، حديث رقم (12656)].

5. تقديم المسّنين في الإمامة عند التساوي في القراءة والفقه:

الإمامة من أخطر المواقف وأعظمها مسؤولية عند الله تعالى، ولهذا لا ينتدب إليها إلا من أكرمهم الله تعالى، وحباهم بعلم من عنده أو بسبق في الهجرة، أو بتقدم سن، قال -عليه السلام-: "يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَاهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقْدَمَهُمْ قِرَاءَةً؛ فَإِنْ كَانَتْ قِرَاعَتُهُمْ سَوَاءً، فَلْيُؤَمِّمْهُمْ أَقْدَمُهُمْ هَجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهَجْرَةِ سَوَاءً، فَلْيُؤَمِّمْهُمْ أَكْبَرَهُمْ سَنًا، وَلَا تَوْمَنَ رَجُلًا فِي أَهْلِهِ، وَلَا فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا تَجْلِسَ عَلَى تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَكَ أَوْ بِإِذْنِهِ" [مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، حديث رقم (673)].

وهذه قيمة إنسانية أخرى رسمتها السنة النبوية في تشريف الإسلام للكبار والشيوخ، لما يتميزون به من المراحل المتقدمة من أعمارهم من ورع وزيادة تقى وقرب من الله تعالى.

6. تقديم المسنين في السلام والشرب وغيره:

ومن القيم الأخلاقية والاجتماعية التي وضحتها السنة النبوية تقديم كبار السن على غيرهم في السلام والأعطيات والشرب وغير ذلك، فهذا الأدب مما تتميز به شريعة الإسلام عن باقي أعراف وتقاليده الحضارات الغربية.

قال صلى الله عليه وسلم: "يسلم الصغير على الكبير، والمارة على القاعد، والقليل على الكثير" [البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب تسليم القليل على الكثير، حديث رقم (45877)]. وفي حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: "أراني في المنام أسوك بسواك، فجدبني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما، فقيل لي: كبر، فدفعته إلى الأكبر" [مسلم، صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (2811)].

قال المناوي: "وفيه أن السن من الأوصاف التي يقدم بها، فيستدل به في أبواب كثيرة من الفقه، ثم يطرد في جميع وجوه الإكرام، كركوب، وأكل، وشرب، وانتعال، وطيب"⁽⁸⁹⁾.

7. رعاية المسنين في الحروب:

لقد بين القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً قيماً وأدباً وأخلاقاً حضارية رفيعة للحرب، وشرعت أحكاماً للمجاهد في أرض القتال المشروع، ولم تطلق له العنان ليعبث بالأرواح والممتلكات كيف شاء.

ومن الأحكام البارزة في القرآن الكريم في موضوع الجهاد النهي عن قتل الشيوخ الفانين غير المقاتلين من أهل الكفر، قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [190: البقرة].

ووجه الدلالة في هذه الآية: أن الله تعالى أمر بالقتال في سبيل الله، ونهى عن الاعتداء في الحرب، والاعتداء كما فسرهُ الحسن البصري بقوله: "المنلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة"⁽⁹⁰⁾.

وجاء في الحديث الشريف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم - إذا بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين، قال: "انطلقوا باسم الله فذكر الحديث وفيه: "ولا تقتلوا ولداً طفلاً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيراً، ولا تغورن عيناً، ولا تعقرن شجرة إلا شجراً يمنعكم قتالاً،

أو يحجز بينكم وبين المشركين، ولا تمثلوا بأدمي ولا بهيمة، ولا تغدروا ولا تغلوا" [البهيقي، السنن، كتاب السير، باب ترك قتال من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما، حديث رقم (18665)].

أما الشيوخ الذين لهم معونة في الحرب فلا بأس بقتلهم وإن لم يكونوا يقاتلون؛ لأن تلك المعونة التي تكون منهم أبلغ وأشد وأعظم من القتل⁽⁹¹⁾، وإليه ذهب الجمهور وهو محل اتفاق بين المالكية والحنابلة والحنفية، وبعض الشافعية⁽⁹²⁾.

والغاية من النهي عن قتال الشيوخ المسنين غير المقاتلين وليسوا أهل حرب هو التكريم لشبيبتهم، والتوقير لسنهم.

فهذه القيم الإنسانية لم تعرف لها الأمم والحضارات الأخرى مثيلاً، إلا في القرنين الماضيين فقط، ممثلة في معاهدين: الأولى معاهدة رسمية حول آداب الحرب سنة (1949م)، والتي تسمى (تصريح باريس البحري)، ثم توالى الاتفاقات بعدها، وفي مقدمتها اتفاقية جنيف سنة (1956م) والمتعلقة بكيفية معاملة جرحى وأسرى الحرب وحماية الأشخاص المدنيين⁽⁹³⁾.

لكن تلك الاتفاقيات طوى صفحاتها صانعوها أنفسهم، وماتت في مهدها، فإذا هاجت عواصف الحروب، سارعوا لقتل الأبرياء من المدنيين وتشريدهم بما فيهم الضعفاء من شيوخ وأطفال ونساء، وهذا ما رأيناه في الحرب الأمريكية على العراق وأفغانستان، وحرب اليهود على فلسطين بما فيها غزة الشهداء.

المبحث الرابع: الأحكام الفقهية الخاصة بالمسنين في القرآن الكريم

إن من أهم ما تميزت به الشريعة الإسلامية التخفيف ورفع الحرج عن المكلفين والتيسير عليهم، قال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [185: البقرة]، وقوله: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) [28: النساء]، وقوله: (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [78: الحج]، أي أن الشارع الحكيم ما يريد من المكلفين إلا اليسر، ومقصد هذا ثابت في الشريعة الإسلامية، إذ لم يقصد الشارع الحكيم إعنات المكلفين، أو تكليفهم ما لا تطيقه وما لا تتحملة نفوسهم.

ومن المعلوم أن الله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولئن كان هذا لعموم المسلمين، فمن باب أولى أن يكون لكبار السن والضعفاء في المجتمع الإسلامي، انطلاقاً من القاعدة الفقهية (المشفقة تجلب التيسير)، ودفعاً للمشفقة عن هذه الفئة شرعت الرخص، والتي يعدها الأصوليون تشريعها من باب المصالح الحاجة والتي شرعت لحاجة الناس إليها، والتي لو لم تشرع لوقع الناس في حرج ومشقة وعنت⁽⁹⁴⁾، وأهم الرخص القرآنية ما يأتي:

1. رخصة الفطر في رمضان لكبار السن:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيُّهَا مَعْدُودَاتِ فَمَن كَانَ مِنْكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 183-184]، يقول ابن كثير: "نزلت الآية في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم، ثم ضعف، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً"⁽⁹⁵⁾.

واتفق الفقهاء على جواز الفطر للشيخ المسن إذا لم يقدر على الصيام، بل قد يجب الفطر إن خاف على نفسه بصومه هلاكاً، أو شديد أذى⁽⁹⁶⁾، ونقل ابن المنذر وابن حزم الإجماع على ذلك⁽⁹⁷⁾.

2. الإجابة عن المسن في الحج:

قال تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) [97: آل عمران]، والمراد بالناس هنا: البعض المستطيع⁽⁹⁸⁾، مع أن الحج فرض عين على كل مسلم، ولا تصح الإجابة فيما هو عيني، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم - شرع لذوي كبير السن بأن ينوب عنه أحدهم في أداء فرضه، وذلك رحمة به وشفقة عليه؛ لما به من عجز وضعف وزمانه، فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال: "جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع، قالت يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الرحلة، فهل يقضي عنه أو أحج عنه؟ قال: نعم" [صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الرحلة، حديث رقم (1755)].

فهذه رخصة للشيخ الكبير الطاعن في السن لم تبح للصغير، ذلك لأن من أعجزته الشيخوخة لا رجاء في عودة قوته ورجوع شبابه، لكن الصغير حتى وإن كان مريضاً، فالأمل باق في شفاؤه وتمائله للصحة والعافية.

3. تخفيف الحجاب على المرأة المسنة:

لقد شرع الإسلام الحجاب لكل امرأة مؤمنة وجعل ذلك واجباً عليها، فأمرها بلبس جلبابها والضرب على وجهها بخمارها وإخفاء زينتها؛ وذلك منعاً لإثارة الفتنة والشهوات، وهذا حسب نظرية الإسلام في أن خير سبل العظة تقليل فرص الغواية، والحيلولة دون المثيرات وبين النفوس⁽⁹⁹⁾، غير أنه استثنى من ذلك الحكم النساء العجائز الطاعنات في السن اللاتي خيمت عليهن الشيخوخة، فأفرغت نفوسهن من الرغبة في معاشررة الرجال، وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات، فقال: "وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ" [60: النور].

يقول القرطبي: "والقواعد: العجز اللواتي قعدن عن التصرف من السن، وقعدن عن الولد والمحيض، وخص القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا مذهب للرجال فيهن، فأببح لهن ما لم يبح لغيرهن، وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب لهن"⁽¹⁰⁰⁾.

ويذكر الشيخ الشعراوي في تفسيره: "القواعد جمع قاعد لا قاعدة، قاعدة تدل على الجلوس، أما القاعد فذكر أو أنثى فهو الذي قعد عن دوره في الحياة، ولم يعد له مهمة الإنجاب، ومثل هؤلاء لم يعد فيهن لربة ولا مطمع؛ لذلك لا مانع أن يتحفظن بعض الشيء من اللباس الذي فرض عليهن حال وجود الفتنة"⁽¹⁰¹⁾.

وفي هذا الحكم يتضح مقصد الإسلام من فرض الحجاب على المرأة المسلمة، فهو لم يفرضه إلا سداً لباب الغواية، ودرءاً لإثارة الشهوات والغرائز، والحفاظ على طهر وعفة المجتمع المسلم، ولما لم يكن هذا عادة عند المسنة العاجزة لما فعلته الشيخوخة بها، رخص لها في تخفيف الحجاب وهو ما غطى ظاهر البدن لا الثياب التي تستر العورة الخاصة بها، وهذا ضرب من التخفيف عن المرأة المسنة⁽¹⁰²⁾.

4. إعفاء المسنين من الجهاد:

حين كان الجهاد في سبيل الله يتطلب من المجاهد أن يكون قوي الساعد، قادراً على الفتك بالأعداء، نجد الإسلام قد أسقط فرض الجهاد عن كل عاجز لا يستطيع أن يقاتل، والمسن الذي أعجزته الشيخوخة وأوقعت عليه همومها أتى له أن يتأني منه نصر، ولذا فهو ممن عذره الله سبحانه.

قال تعالى: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) [95: النساء]، والضرر: المرض، أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها⁽¹⁰³⁾، ومعنى الآية: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إلا أولي الضرر، فإنهم يساؤون المجاهدين، أي الذين أقعدهم عن الجهاد الضرر⁽¹⁰⁴⁾، قال تعالى: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [91: التوبة].

روى الإمام البخاري أنه لما نزلت (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) [95: النساء]، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - زيدا فجاء بكتف فكتبها، فشكا ابن أم مكتوم ضرارته فأنزل الله "غير أولي الضرر" [صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: " لا يستوي القاعدون"، حديث رقم (4227)].

والمتمثل في هذه الأحكام يجدها في جوهرها مظهراً من مظاهر الرعاية الإسلامية للشيوخ والمسنين، وهذا من أبرز مظاهر القيم القرآنية التي انفردت بها الشريعة الإسلامية عن باقي التشريعات والنظم الوضعية.

لأن النظم الوضعية أكثر ما تراعى في علاجها لمشاكل المسنين الجوانب الصحية والنفسية، والعملية، والتكفل بمعاشهم وغير ذلك، وهذه القيم الحضارية التي رسمها القرآن الكريم لهذه الفئة تشكل السبق الحضاري في رعاية الشيوخ والمسنين والكبار، قبل أن تنشأ المؤسسات التي تطالب بحمايتهم ورعايتهم بقرون طويلة.

الخاتمة

وضمنتها النتائج والتوصيات:

1. القيم الحضارية في رعاية المسنين في القرآن الكريم عامل رئيس في تحقيق الأمن في المجتمع، وحفظه من الفوضى والاضطراب.
2. المسن كل فرد عاجز عن رعاية نفسه وخدمتها؛ إثر تقدمه في العمر، وليس بسبب إعاقة أو شبهها.
3. القيم الحضارية في القرآن الكريم هي الروح التي تمثّل الأمة الإسلامية بالحياة.
4. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ راسخ في نشر القيم الحضارية بين أفراد المجتمع.
5. الاختلاف والافتراق، يخلق أزمة للقيم الحضارية؛ عندئذ يكون الانهيار والدمار.
6. التربية القيمية في العصر الحديث، يجب أن تقوم على تقديم المبدأ والمقياس الخلقي الإسلامي، وتربيتها من خلال مواد المنهج، وتهيئة البيئة المناسبة للسلوك الحسن.
7. مستقبل الإسلام مرهون بقيمه الحضارية.
8. الاهتمام بالوالدين ورعايتهما، والإحسان إليهما، دليل على رقي الأمة من انحطاطها، وتقدمها من تأخرها.
9. رعاية الوالدين في الإسلام مظهر حضاري رائع وراق، عززت القواعد والنظريات الدولية الحديثة أن تتجسد مثلها.
10. المسن له حقه في العمل ما دام قادراً عليه، لا سيما في بعض المهن التي تحتاج إلى خبرات متمرسة وطويلة.

11. الإنفاق على الفقير المسن، واجب على القريب الغني.
12. عدم قتال المسنين من الكفار في الحروب، دليل على علو القيم والأخلاق الرفيعة لشريعة الجهاد في الإسلام.
13. الرخص الشرعية للشيوخ والمسنين في الإسلام؛ لرفع الحرج والمشقة عنهم.

التوصيات:

1. إعداد الكتب والمجلات العلمية التي تركز على القيم الحضارية القرآنية لرعاية المسنين ونشرها بلغات عالمية، تبرز رعاية الإسلام لهذه الفئة.
2. تشكيل لجان مهمتها تبصير الناس في أهمية احترام المسنين وتوقيرهم في المجتمع.

المراجع

- (1) جمال الدين الإفریقی ابن منظور (توفي 711هـ)، لسان العرب، بيروت، دار المعرفة، 1990 (ط1)، ج2، ص503.
- (2) الراغب الأصفهاني (توفي 425هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية، 2002 (ط3)، ص691.
- (3) الأصفهاني، المفردات، ص691.
- (4) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، 2000 (ط1)، ج30، ص425.
- (5) محمد بن عمر الرازي (توفي 604هـ)، التفسير الكبير، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000 (ط1)، ج30، ص45-ص46.
- (6) د. ناصر الدين الأسد، نظرات في لغة المصطلح وفي مضمونه، ندوة أزمة القيم ودور الأسرة في تطوير المجتمع المعاصر، الرباط، 2001، ص49.
- (7) فؤاد البهي، علم النفس الاجتماعي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1954، ص294.
- (8) د. علي أبو العنين، القيم الإسلامية والتربية، المدينة المنورة، مكتبة إبراهيم حليبي، 1988، ص34.
- (9) محمد ابن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دمشق، المكتبة الأموية، 1971، ص139.
- (10) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تركيا، دار الدعوة، 1989، ج1، ص181.
- (11) أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها، بيروت، الدار العربية، ص5.

- (12) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر سقاوي وعبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 1986، ص62-63، ص98.
- (13) الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري، مقدمات في الرؤية والمنهج، الجزائر، مسجد الجامعة المركزية، 1990، ص21.
- (14) ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص221.
- (15) ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص222.
- (16) جنان العمري، نحو برامج مواجهة العمل الاجتماعي مع المسنين، في (دراسات وقضايا من المجتمع العربي الخليجي، البحرين، مكتب المتابعة، 1985، ص350.
- (17) عزت إسماعيل، الشيخوخة، الكويت، وكالة المطبوعات، 1983، ص17.
- (18) كمال آغا، مشكلات التقدم في السن، الكويت، دار القلم، 1404هـ، ص157.
- (19) عبدالله بن ناصر السدحان، رعاية المسنين في الإسلام، الكويت، مجلة الشريعة، 1997، العدد(33)، ص202.
- (20) ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص391.
- (21) د. هدى محمد قناري، سيكولوجية المسنين، مصر، مركز التنمية البشرية والمعلومات، 1987 (ط1)، ص17.
- (22) ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص799.
- (23) محمود الألويسي (توفي 1270هـ)، روح المعاني، تحقيق محمد أحمد وعمر عبد السلام، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000 (ط4)، ج16، ص505.
- (24) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (توفي 817هـ)، القاموس المحيط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1991 (ط1)، ج2، ص136-137.
- (25) محمد بن أحمد القرطبي (توفي 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996 (ط5)، ج14، ص213.
- (26) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج3، ص563.
- (27) إسماعيل بن كثير (توفي 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تقديم د. يوسف عبد الرحمن، بيروت، دار المعرفة، 1994 (ط2)، ج2، ص598.
- (28) القرطبي، الجامع، ج10، ص93.
- (29) عبد الرحمن أبي بكر السيوطي (توفي 911هـ)، الديباج، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، السعودية، دار ابن عفان، 1996، ج6، ص62.

- (30) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، 2000(ط1)، ج9، ص67.
- (31) محمد الشعراوي، تفسير الشعراوي، القاهرة، أخبار اليوم، ج8، ص4640.
- (32) الشعراوي، تفسير، ج8، ص4644.
- (33) د. يوسف القرضاوي، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، القاهرة، دار الشروق، 2002(ط3)، ص286-287.
- (34) عبد الرحمن بن خلدون (توفي 808هـ)، المقدمة، القاهرة، دار النهضة، 1979، ص9.
- (35) القرطبي، الجامع، ج9، ص76.
- (36) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج1، ص398.
- (37) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج1، ص398.
- (38) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عمر مسقاوي، دمشق، دار الفكر، 1986، ص91.
- (39) د. بشير حاج، تدريس القيم الخلقية، جامعة أم القرى، 1983(ط1)، ص18.
- (40) نصر بن محمد السمرقندي، تنبيه الغافلين، تقديم وإشراف خليل الميس، بيروت، دار القلم، ص50-51.
- (41) الرازي، التفسير الكبير، ج20، ص149.
- (42) الأصفهاني، المفردات، ص144.
- (43) القرطبي، الجامع، ج5، ص120.
- (44) محمود بن عمر الزمخشري (توفي 538هـ)، الكشف، ضبطه محمد عبدالسلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995(ط1)، ج1، ص159.
- (45) القرطبي، الجامع، ج3، ص13.
- (46) الشعراوي، تفسير، ج15، ص9077.
- (47) محمد بن علي الشوكاني (توفي 1250هـ)، فتح القدير، تحقيق وضبط: أحمد عبد السلام، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994(ط1)، ج2، ص224.
- (48) عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (توفي 911هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1990، ج5، ص258.
- (49) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص138.
- (50) جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (توفي 597هـ)، برّ الوالدين تحقيق محمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، (ط1)، 1408، ص48.

- (51) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، ص37.
- (52) سيد قطب، الظلال، بيروت، دار الشروق، 1994 (ط23)، ج4، ص2221.
- (53) القرطبي، الجامع، ج14، ص45.
- (54) القرطبي، الجامع، ج10، ص160.
- (55) السمرقندي، تنبيه الغافلين، ص52.
- (56) أبو يوسف، الخراج، بيروت، دار المعرفة، ص14.
- (57) د. يوسف القرضاوي، حقوق الشيوخ والمسنين في ضوء الشريعة الإسلامية، القاهرة، مكتبة وهبه، 2004 (ط1)، ص13-ص14.
- (58) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (توفي 728هـ)، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد القاسم وولده محمد، السعودية، وزارة الأوقاف، 1995 (ط1)، ص149.
- (59) د. عبدالله عبدالغني غانم، جرائم المسنين في العالم العربي، الرياض، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، 1988، ص47.
- (60) د. وهبه الزحيلي، حقوق الأطفال والمسنين، دمشق، دار المكتبي، 2002 (ط1)، ص47-ص48.
- (61) سيد إبراهيم سلامة، رعاية المسنين، الإسكندرية، المكتب العلمي للنشر والتوزيع، ص203.
- (62) الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص555.
- (63) الشعراوي، تفسير، ج18، ص11530.
- (64) الشعراوي، تفسير، ج18، ص11532، ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص220.
- (65) الشعراوي، تفسير، ج18، ص11531.
- (66) د. عبد العزيز القصار، رؤية معاصرة حول موقف الإسلام من قضايا المسنين ورعايتهم، سلسلة الدراسات الاجتماعية (قضايا المسنين بين متطلبات العصر ومسؤوليات المجتمع، البحرين، المكتب التنفيذي، 1999 (ط1)، ص36.
- (67) عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، 1356هـ—(ط1)، ج5، ص388.
- (68) المناوي، فيض القدير، ج5، ص389.
- (69) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، دار القلم، 1410هـ، ص130.
- (70) المناوي، فيض القدير، ج5، ص388.

- (71) د. عبد العزيز القصار، رؤية معاصرة حول موقف الإسلام من قضايا المسنين ورعايتهم، ص37.
- (72) ابن مفلح الحنبلي، الآداب الشرعية والمنح المرعية، الرياض، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1977، ج3، ص266.
- (73) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، تحقيق محمد عمارة، بيروت، دار الشروق، 1409هـ، ص121.
- (74) محمد بن الحسن الشيباني والسرخسي، كتاب الكسب وشرحه، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، 1997(ط1)، ص70، ص71.
- (75) محمد كامل البطريق ومحمد توفيق، مجالات الرعاية الاجتماعية، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ص147-ص148.
- (76) الألوسي، روح المعاني، ج3، ص92.
- (77) د. وهبه الزحيلي، حقوق الأطفال والمسنين، دمشق، دار المكتبي، 2002(ط1)، ص56-ص57.
- (78) د. وهبه الزحيلي، حقوق الأطفال والمسنين، ص55-ص56.
- (79) الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص296.
- (80) د. فؤاد عبد المنعم أحمد، حقوق المسنين وواجباتهم في الإسلام، الإسكندرية، المكتبة المصرية، ص17.
- (81) د. وهبه الزحيلي، حقوق الأطفال والمسنين، ص49، ص50.
- (82) ابن قدامة المقدسي (توفي 630هـ)، المغني، تحقيق د. عبدالله عبد المحسن التركي والكتور عبد الفتاح الحلو، القاهرة، هجر للطباعة والنشر، 1992(ط2)، ج11، ص373.
- (83) ابن قدامة، المغني، ج11، ص379.
- (84) د. وهبه الزحيلي، حقوق الأطفال والمسنين، ص53.
- (85) د. عبد الرحمن نفيسه، حقوق المسنين في الإسلام، الرياض، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد(10)، 1412هـ، ص56.
- (86) مجمع الفقه الإسلامي، إعلان الكويت عن حقوق الإنسان، 1412هـ، الدورة الثانية عشر، ص11.
- (87) محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، عون المعبود، بيروت، دار الكتب العلمية، 1415هـ (ط2)، ج12، ص159.
- (88) المناري، فيض القدير، ج2، ص193.

- (89) المناوي، فيض القدير، ج2، ص193.
- (90) ابن كثير، تفسير، ج1، ص233.
- (91) ابن كثير، تفسير، ج1، ص233.
- (92) ابن قدامه، المغني، ج8، ص477.
- (93) جمال محفوظ، فن الحرب عند الجاهلية والإسلام في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987، ج3، ص53.
- (94) د. مازن مصباح صباح، التيسير ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية، بحث مقدم في مؤتمر الوعظ والإرشاد السنوي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، غزة، فلسطين، ص17.
- (95) ابن كثير، تفسير القرآن، ج1، ص221.
- (96) محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام، شرح فتح القدير، بيروت، دار الفكر، ط2، ج2، ص356/ فخر الدين عثمان الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق - مع حاشية الشلبي، مصر، المطبعة الأميرية، مصر، ج1، ص337/ شمس الدين محمد الرملي، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، مصر، مطبعة البابي الحلبي، 1697، ج3، ص193/ منصور البهوتي، كشف القناع، بيروت، دار الفكر، 1982، ج2، ص309/ منصور بن يونس البهوتي، شرح منتهى الإرادات، بيروت، عالم الكتب، 1993(ط1)، ج1، ص475.
- (97) ابن المنذر، الإجماع، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985(ط2)، ص16/ ابن حزم، مراتب الإجماع، بيروت، دار الكتب العلمية، ص40.
- (98) محمد جمال الدين القاسمي (توفي 1322هـ)، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1994(ط1)، ج2، ص98.
- (99) سيد قطب، الظلال، ج4، ص2522.
- (100) القرطبي، الجامع، ج12، ص23.
- (101) الشعراوي، تفسير، ج1، ص10335.
- (102) الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص65.
- (103) الزمخشري، الكشاف، ج1، ص542.
- (104) الرازي، التفسير الكبير، ج11، ص7.